

المجلة الفكرية

مجلة فكرية إبداعية

شهرية تصدر مؤقتاً ست مرات في السنة — السنة الخامسة — العدد التاسع عشر — 1981

المدير المسؤول : محمد بنيس.

هيئة التحرير : محمد البكري، مصطفى المسناوي، عبد الله راجع.

العنوان : ص.ب : 505، المحمدية، المغرب.

الاشتراكات :

المغرب :

الاشتراك العادي : 30 درهما

اشتراك المؤسسات : 75 درهما

الأقطار العربية واوروبا :

الاشتراك العادي : 75 درهما.

اشتراك المؤسسات : 225 درهم.

إشتراك المساندة : ابتداء من 50 درهم

تبعت الاشتراكات باسم

محمد بنيس

الحساب البريدي : 1.383.41 الرباط

التوزيع : سوشيريس.
الصحيف الإلكتروني : لينو النخلة، 5، زقة مستغانم البيضاء
السحب : مطبعة الأندلس، 499 شارع الفداء، البيضاء.

1 — المقالات التي تنشر في المجلة تعبر عن رأي كاتبها

2 — المقالات التي لم تنشر لا تولى الى أصحابها.

الموضوعات :

• دراسة

نحو فلسفة ماركسية للغة

3 ميخائيل باختين

• قصة

المحاكمة

19 صنع الله إبراهيم

• ملف خاص عن « الكتابة »

بيان الكتابة

34 محمد بنيس

الجنون المغلق

56 عبد الله راجع

اثبات الكتابة ونفي التاريخ

60 نجيب العوفي

خلخلة المعروف والجاهز — الكتابة كفعل جسدي

75 — 72 محمد القاسمي

في اتجاه صوتك العمودي

79 عبد اللطيف بنداود

حالات

92 محي الدين بن عربي

هكذا كلمني الشرق (موسم الحضرّم)

96 محمد بنيس

من تراثنا الحديث

108 نصوص لمحمد القندوسي (1861)

113 الحوية لعبد القادر الشاوي

117 مجلات، بيانات، مناقشات

نحو فلسفة ماركسية للغة (القسم الأول)

اتجاهان في الفكر الفلسفي — اللساني *

ما الذي يُكَوِّن موضوعَ فلسفة اللغة؟ أين يمكننا العثور على هذا الموضوع؟ ما هي طبيعته الملموسة؟ أي منهاجية نعتد لدراسته؟ في القسم الأول من دراستنا، والذي خصصناه للتمهيد، لم نتعرض لهذه القضايا المحسوسة. لقد تحدثنا عن فلسفة اللغة والكلمة. لكن ماهي اللغة؟ وما هي الكلمة؟ طبيعي أن الأمر لا يتعلق هنا بصياغة تعريفات جامعة مانعة لهذه المفاهيم الأساسية. فصياغة من هذا النوع لا يمكن أن تتحقق إلا في نهاية بحثنا وليس في مستهله (في حدود اعتبار أن التعريف العلمي لا يمكن أن يكون أبدا كاملا). ومن اللائق أن نضع في أساس الطريق التي سنسلكها تعليمات منهاجية، وليس تعريفات إذ من الضروري قبل أي شيء، أن نقبض على موضوع بحثنا ونحصره، كما أنه من اللازم عزله عن سياقه وضبط حدوده أولا.

ليس الذكاء هو الذي يبحث، في بداية العملية الاستكشافية، بانبا القواعد والتعريفات، ولكنها العيون والأيدي هي التي تجتهد محاولةً حصر الطبيعة الواقعية للموضوع؛ لكن هاهي ذي العيون — في موضوعنا هذا — لا ترى شيئا، والأيدي بدورها لا تلمس شيئا. إن الأذن هي المؤهلة، ظاهريا، أفضل من غيرها فهي التي تدعى سماع الكلمة، وسماع اللغة، والواقع أن إغراءات التجريبية الصوتية المسطحة قوية جدا في اللسنيات. فدراسة الوجه الصوتي للدليل اللساني تحتل حيزا شاسعا ومبالغا فيه بالمقارنة مع غيرها. فهي غالبا ما تقوم بتنظيمه، وفي جل الحالات تُجْرَى هذه الدراسة دون أية علاقة بالطبيعة الحقيقية للغة، باعتبارها أنظمة إشارة إيديولوجية⁽¹⁾. هكذا تبقى معضلة توضيح الموضوع الواقعي لفلسفة اللغة مستعصية عن الحل. وكلما حاولنا حصر موضوع البحث وإرجاعه إلى مركب موضوعي، مادي، متلاحم، جيد التحديد وقابل للملاحظة، إلا وضاع منا جوهر الموضوع المدروس ذاته، أي طبيعته الدلالية والإيديولوجية. وإذا ما عزلنا الصوت كظاهرة سمعية محضة، فإننا سوف لن نستخرج منه اللغة باعتبارها موضوعا من نوع خاص فالصوت يدخل كليا ضمن اختصاصات الفيزيائيين. وإذا ربطنا بين أطراف العملية الفيزيولوجية المنتجة للصوت والعملية الصوتية لأدراكه فإننا لن نقرب مع ذلك من هدفنا. وإذا جمعنا بين النشاط الذهني (الأدلة الداخلية) للمتكلم وللسماع فإننا سنجد أنفسنا أمام عمليتين نفسيتين — فيزيائيتين

تجهان عند ذاتين مختلفتين من الناحية النفسية في الفيزيولوجية، وبمركب إصائي فيزيائي واحد يتحقق في الطبيعة حسب القوانين الفيزيائية. ومع ذلك فإننا لن نعلم، دائما، على اللغة بصفتها موضوعا من نوع خاص، رغم أننا استنجدنا بثلاثة مجالات من الواقع : المجال الفيزيائي، والمجال الفيزيولوجي والمجال النفسي؛ وقد نتج عن ذلك، وبكيفية مرضية بمجموع مركب ذو مكونات متعددة. إلا أن هذا المركب لاروح له، وعضو أن تكون عناصره المختلفة مترابطة فيما بينها بمجموعة من القوانين الداخلية التي تبعث فيه الحياة وتحوله، بحق، الى واقعة لغوية، فإننا نجدتها مصفوفة فقط.

ماذا يجب أن يضاف، أكثر من ذلك. إلى هذا المجموع المعقد جدا ؟ يجب أن يدج، قبل كل شيء، في مركب أكثر اتساعا، مركب يحتويه : أي في الدائرة الوحيدة : دائرة العلاقة الاجتماعية المنظمة. وإذا كان لابد، للملاحظة عملية الاحتراق، من وضع الجسم في الوسط المناخي، فنفس الشيء كذلك بالنسبة للملاحظة ظاهرة اللغة : إذ لابد من وضع النوات البيئة والمتلقية للصوت، وحتى الصوت نفسه في الوسط الاجتماعي. والواقع أنه من الضروري أن ينتمي المتكلم والسامع إلى نفس الجماعة اللسانية أي إلى مجتمع منظم بشكل واضح. ومن الضروري أيضا أن يكون هذان الشخصان مندجين في وحدانية الوضع الاجتماعي المباشر أي أن تربط بينهما علاقة شخص بشخص فوق أرضية أشد تحديدا. ولا يكون هذا التبادل اللغوي ممكنا إلا على هذه الأرضية المضبوطة : إن أرضية للتفاهم العرضي لا تتلاءم معه ولا تساعد عليه، حتى ولو توفر التوافق أو التشارك العقلي. وعلى هذا الأساس فإن وحدانية الوسط الاجتماعي ووحدانية السياق الاجتماعي المباشر شرطان ضروريان كليا لكي يصير المركب الفيزيائي - النفسي - الفيزيولوجي، الذي حددناه سابقا، مرتبطا باللسان والكلام، وأن يصير واقعة لغوية. إن جسمين عضويين إحيائيين، جمع بينهما في وسط طبيعي محض لا يمكنهما أن ينتجا نشاطا كلاميا.

إلا أنه، نتيجة لتحليلنا، عوض أن نتوصل الى حصر موضوع بحثنا وتضييقه، كما هو مرجو، فإننا قد وسعناه وعقدناه إلى أقصى حد. والواقع، أن الوسط الاجتماعي المنظم الذي أدجنا فيه مركبنا، ووضعية التبادل اللغوي الأكثر مباشرة، تشكل بذاتها تعقيدات خطيرة جدا فهي تتضمن علاقات متباينة تمام التباين من حيث طبيعتها، وذات واجهات متعددة، وليست كل هذه العلاقات ضرورية لفهم وقائع اللسان، وليست جميعها بعناصر مكونة للغة. وأخيرا يتطلب مجموع هذا النظام المركب من ظواهر وعلاقات وعمليات الخ... اختزالا وتوحيدا لقاسمه المشترك. ويجب أن تلنقى كل خطوطه في مركز واحد : إنها تلك الحيلة السحرية التي تشكلها العملية اللسانية.

لقد عرضنا في القسم السابق مشكلة اللغة، أي أننا أوضحنا المشكل ذاته، والمعضلات التي يتضمنها. فماذا قدمت فلسفة اللغة واللسانيات العامة من حلول لهذا المشكل ؟ وماهي الصووى التي قد علمت بها كل واحدة منهما طريق الحل، والتي تساعدنا بالتالي على الاتجاه ؟ ليس في نيتنا القيام بتاريخ كامل لفلسفة اللغة واللسانيات العامة، ولا حتى القيام بعرض لوضعها الراهن. سنقتصر على تحليل عام للخطوط الكبرى للفكر الفلسفي واللسانيات في الأزمنة الحديثة. (2)

في فلسفة اللغة كما في التقسيمات المنهاجية الماثلة لها على صعيد اللسانيات العامة، نجد أنفسنا في حضرة اتجاهين رئيسيين يسعيان لحل مشكلتنا المتمثل في عزل وتحديد اللغة كموضوع لدراسة من نوع خاص. يتربط عن ذلك، طبعا، تمييز جذري بين هذين الاتجاهين، فيما يتعلق بالمسائل الأخرى المطروحة في اللسانيات. سنسمي الاتجاه الأول: «الذاتية المثالية في اللسانيات» والاتجاه الثاني «الموضوعانية المجردة»⁽⁵⁾.

يركز الاتجاه الأول أهتمامه على فعل الكلام، والابداع الفردي كأساس للسان (أي كل نشاط لغوي بدون استثناء). تشكل النفسية الفردية نبع اللسان ومصدره، وقوانين الابداع اللساني في جوهرها إنما هي قوانين فردية — نفسية، — باعتبار أن اللغة تطور متواصل وإبداع مستمر — وهي التي يجب على اللساني وفيلسوف اللغة أن يدرسها. إن توضيح الظاهرة اللسانية يعني تحويلها إلى فعل إبداع فردي مُفكّر فيه (بل غالبا ما يكون عقلانيا)، أما كل ما يتبقى من مهمة عالم اللسانيات فلا يكتب سوى طابع تمهيدي، بثناء، وصفي، وتربيتي: ينحصر فقط في إعداد التفسير الشمولي للواقعة اللسانية باعتبارها متولدة عن فعل الابداع الفردي، أو في خدمة الأهداف العملية لتحصيل لغة تامة ناجزة. يصير اللسان حسب هذا الرأي، مشابها للتجليات الأبيولوجية، خصوصا في مجال الفن وعلم الجمال.

وتنحصر المواقف الأساسية للاتجاه الأول من اللغة في الاقتراحات الأربعة التالية :

- 1 — اللسان نشاط، وعملية إبداع متواصل من البناء (طاقة فاعلة) (energia) تتجسد في شكل أفعال الكلام وإنتاجاته الفردية.
- 2 — إن قوانين الإبداع اللغوي في جوهرها قوانين فردية نفسانية.
- 3 — الإبداع اللساني إبداع مغلقل مشابه للإبداع الفني.
- 4 — تبدو اللغة، باعتبارها نتاجا ناجزا (ergon) ونظاما قارا (المعجم والنحو، والصوتيات)، مستودعا جامدا، مثل حياة الإبداع اللساني المتجمدة، التي أنشأها اللسانيون، بكيفية مجردة، بهدف التحصيل العمل عليها كأداة جاهزة للاستعمال.

لقد كان (فيلهلم هامبولدت) من بين المثاليين الأكثر شهرة لهذا الاتجاه، فهو واضع أسسه. بل إن التأثير الذي حظي به الفكر الهامبولدي القوي تجاوز بكثير حدود الاتجاه الذي وصفنا منذ حين. ويمكن القول بأن اللسانيات التي جاءت من بعده كلها خاضعة، وحتى أيامنا هذه، لتأثيره الحاسم. إن الفكر الهامبولدي جميعه لا يدخل في إطار الاقتراحات الأربع التي بينا آنفا، فهو أرحب وأعمق، ويحتوي على كثير من التناقضات؛ ولهذا السبب كان (هامبولدت) معلم ورائد تيارات تتناقض فيما بينها بشكل عميق. ومع ذلك فإن النواة الرئيسية لأفكاره تشكل التعبير الأقوى والأعمق عن الاتجاهات الأساسية للمدرسة التي حددنا⁽⁶⁾. أما الممثل الأكثر شهرة لهذه المدرسة في الأدب اللساني الروسي فهو (أ.أ. بوتنينا) والحلقة المكونة من تلاميذه⁽⁶⁾.

ولم يصل المتأخرون جدا، من معتنقي الاتجاه الأول، إلى سير عمق نظرات (هامبولدت) وتركيبه الفلسفي، فقد ضعفت هذه المدرسة الفكرية جدا، بسبب تحولها إلى نمط من التفكير الوضعي والنزعة التجريبية المسطحة. إننا لا نعلم لدى (ستينطاهل) على أي شيء من عظمة

(هامبولدت). وتصلنا عوض ذلك موجة هائلة من التنظيم المنهاجي. وبالنسبة (لستينطاهل) أيضا، تنبع اللغة من النفسية الفردية، بينما تبقى قوانين النحو اللسني قوانين نفسانية⁽⁹⁾.

ولا نعلم في النزعة النفسانية التجريبية (ليوندت)، ولا عند تلامذته، على أسس المدرسة الأولى، إلا في صورة باهتة جدا. ويتلخص مذهب (يوندت) في أن كل الوقائع اللغوية بدون استثناء — قابلة لتفسير مبني على علم النفس الفردي وعلى أساس إرادي⁽¹⁰⁾. حقا انه، مثل (ستينطاهل)، يعتبر اللغة انبثاقا عن (نفسية الشعوب) (Völker psychologie) أو « علم النفس السلافي »⁽¹¹⁾. وتتكون نفسية الشعوب البونديتية من عملية تجميع النفسيات المتفرقة للأفراد، فهي وحدها، في نظره، لها حق الولوج إلى الواقع في كليته.

كل هذه التفسيرات المنصبة على الوقائع اللسانية، والأساطير، والدين، تعود الى تفسيرات نفسية صرفة. فيوندت لا يعترف بوجود مجموعة من القوانين النوعية، والاجتماعية المحضة، الملازمة لكل دليل أيديولوجي، والتي لا يمكن إختزالها الى بعض القوانين الفردية النفسية.

لقد بدأ الاتجاه الأول يزدهر حاليا، من جديد، — سيما وقد تخلى عن الطرق الوضعية — وشرع في توسيع رؤيته لهذه القضايا، وذلك في إطار مدرسة (فوسلر). وليس من منازع في أن هذه المدرسة التي سميت بـ (الفيلولوجية المثالية الجديدة) (Idéalistische Neuphilologie) تشكل أحد أكثر الاتجاهات خصبا في الفلسفة — اللسانية المعاصرة. إن الإسهام الإيجابي والأصيل الذي شارك به تلامذتها في اللسانيات (الدراسات الرومانية والجرمانية) يكسبي هو الآخر أهمية كبرى. ويكفي أن نذكر إلى جانب (فوسلر) ذاته تلامذة من أمثال (ليوبسيتزر) و (لورسك)، و (ليرتش) الخ... سنستشهد بكل واحد منهم مرات متعددة.

إن الاقتراحات الأربعة الأساسية للمدرسة الأولى، والتي عرضناها سابقا، يمكن ان تلخص بكيفية صائبة كل المفهوم اللسني — الفلسفي لفوسلر ومدرسته. وتتميز هذه المدرسة أساسا، بـ رفضها القاطع والمبدئي للاتجاه الوضعي في اللسانيات، تلك الوضعية التي لا ترى أبعد من الأشكال والصيغ اللسانية (وخصوصا الصوتية منها فهي الأشد وضعية) ومن أن الفعل النفسي — الفيزيولوجي هو الذي يولدها⁽¹²⁾ ومن هنا انبثق المكون الأيديولوجي الدال للسان واحتل الصدارة، وينكشف المحرك الرئيسي للابداع على أنه هو «النوق اللسني» الذي ليس سوى تنوع خاص للنوق الفني. والنوق اللسني هو بالضبط تلك الحقيقة اللسانية المطلقة التي تمنح الحياة للسان، والتي يحاول عالم اللسانيات جاهدا اكتشافها في كل واقعة لسانية، بهدف إعطاء تفسير موافق لهذه الواقعة. يقول (فوسلر) :

«وحده يستطيع أن يطرح إلى الطابع العلمي، تاريخ للسان يتفحص التراثية السببية النزاعية كلها، وهدفه الوحيد أن يعثر فيها على نظام جمالي، حتى يمكن للفكر اللسني، وإحقيقة اللسانية، والنوق اللسني، والعاطفة اللسانية — أو كما يقول هامبولدت، الشكل الداخلي للسان عبر تحولاته المشروطة بالعوامل الفيزيائية، السياسية، والاقتصادية والثقافية عموما — أن تصير واضحة ومفهومة»⁽¹³⁾.

وهكذا يرى (فوسلر)، بأن العوامل التي تحدد بشكل أو بآخر وقائع اللسان (الفيزيائية، والسياسية والاقتصادية الخ...) ليس لها من معنى مباشر بالنسبة لللسني، فالشيء الوحيد الذي يسمه هو المعنى الفني لواقعة لسانية معينة. هذا هو المفهوم الذي يكونه عن اللسان، وهو مفهوم جمالي محض. يقول (فوسلر) : « إن فكرة اللسان ذاتها من حيث الجوهر هي فكرة شعرية ؛ ولحقيقة اللسان طبيعة فنية. إنه الجميل، وقد مُهَرَّ بالمعنى (12).

ونفهم مما سبق أن فعل الإبداع الفردي للكلام sprache als rede هو الذي سيشكل بالنسبة لفوسلر الظاهرة الأساسية والواقع الأساسي للسان، وليس النظام اللسني المكتمل، بمعنى جماع السمات الصوتية والنحوية وغيرها. ويترب عن ذلك أن تجعل وجهة نظر تطور اللسان أهم شيء، في كل فعل كلامي، هو بالضغط التحقيق الأسلوبى والتغيير في الصيغ والأشكال المجردة للسان، تلك الصيغ والأشكال ذات الطابع الفردي التي لا تمس سوى إنجاز الكلام، وليست الصيغ النحوية القارة، الفعلية والمشاركة بين كل الأقوال المنجزة في ذلك اللسان المعين هي التي تكسب الأهمية.

ووحده هذا التفرد الأسلوبى للسان في المَقُول يُكُونُ تاريخياً ومُتَّجِماً فعلاً. وهنا بالضغط حدث تطور اللسان، ذلك التطور الذي خنقه التعقيد النحوي فيما بعد. لقد كانت كل واقعة نحوية، في بداية الأمر، واقعة أسلوبية. وهذا هو مصدر فكرة (فوسلر) القائلة ب أولوية الأسلوب عن النحو (13). هكذا تصمق غالبية البحوث المستوحاة من المذهب الفوسليري في حدود اللسانيات (بمعناها الضيق) والأسلوبية. ويسمى الفوسليريون جاهدين ومدققين لاكتشاف الجنور الايديولوجية الدالة في كل صيغة أو شكل نحوي (14).

من الملائم أن نذكر أيضاً. ضمن المثليين المعاصرين للاتجاه الفلسفي — اللسني الأول، الفيلسوف والناقد الأدبي الإيطالي بينديتو كروشى لتأثيره القوي على الفكر الفلسفي — اللسني والنقد الأدبي في أوروبا. وأفكاره قريبة، في جوانب متعددة، من أفكار (فوسلر).. فهو أيضاً يرى أن اللسان يشكل ظاهرة جمالية. ان كلمة «تعبير» هي قاعدة مفهومه للسان ومصطلحه — المفتاح. وكل تعبير هو أولاً، وقبل كل شيء، ذو طبيعة فنية. والنتيجة هي أن اللسانيات، بوصفها علماً أمثل للتعبير، تتصادف مع علم الجمال، ويترب عن ذلك، بالنسبة لكروشى، أن يكون فعل الكلام الفردي، هو أيضاً، الظاهرة الأساسية للسان (15).

وتجر الآن الى التعريف بالاتجاه الثاني للفكر الفلسفي — اللسني. بالنسبة لهذا الاتجاه يقع المركز المُنتَظَم لكل وقائع اللسان، على العكس من ذلك، في النظام اللسني أي : نظام الصيغ الصوتية والنحوية والمعجمية للسان، الشيء الذي يجعل منه موضوع علم جيد التحديد. في حين أن اللسان يُكُونُ، في نظر الاتجاه الأول، سيلاً متواصل من أفعال الكلام، وهو سبيل لا يبقى فيه أي شيء مستقر، أو محافظاً على هويته؛ أما بالنسبة للاتجاه الثاني فإن اللسان قوس قزح ثابت، يسيطر على هذا السيل. فكل فعل إبداع فردي، وكل قول هما تعبير وحيدٌ وغير قابل للتكرار. ولكن توجد في كل قول عناصر مماثلة لعناصر أقوال أخرى مُتَّجِبة في إطار مجموعة معينة من المتكلمين. إن هذه السمات المتماثلة هي التي تضمن وحدانية لسان ما، وتضمن فهم متكلمي نفس الجماعة البشرية له، وهي بسبب هذا التماثل مُقَعَّدة من

أجل كل إنجازات الكلام والأقوال، إنها سمات صوتية ونحوية ومعجمية.

وإذا أخذنا من اللغة صوتاً ما، ولتكن الوحدة الصوتية *a* في كلمة (*raduga*) (قوس قزح) فالصوت الذي أنتجه الجهاز النطقي للجسم العضوي الفردي إنما هو صوت فردي وفرد تختص به كل ذات متكلمة. فيقدر ما يوجد أشخاص ينطقون كلمة *reduga* بقدر ما توجد حركات *a* خاصة بهذه الكلمة (رغم أن الأذن لا تهرّد ولا تستطيع تلمّس وضبط هذه الخصوصية). نجد في نهاية المطاف أن الصوت الفيزيولوجي (أي الصوت الذي ينتجه الجهاز الفيزيولوجي الشخصي) صوت فردي أيضاً مثل فريدة بصمة فرد ما، فردي مثل التركيب الكيميائي الشخصي لدم كل فرد (رغم أن العلم لم يصل بعد إلى مستوى تحدّد الصيغ الفردية للدم).

ومع أن هذه الخصائص الفردية لصوت *a* مشروطة بالشكل الفردي لألسنة (اللسان كعضو) وسقوف أفواه، وأضراس الذوات المتكلمة (مسلمين بأننا نمتلك القدرة على ضبط وتثبيت هذه الخصوصيات) فهل يمكن اعتبارها جوهرية من وجهة نظر اللسان؟ طبعاً، لا أهمية لها. إذ أن الأساسي هو الهوية المقفّدة لهذا الصوت في كل الكيفيات التي تنطق بها كلمة *raduga*. إن هذا التطابق المقعد بالضبط هو الذي يشكل (مادام لا يوجد تطابق واقعي) وحدانية النظام الصوتي. للسان (في الأطوار التزامني)، ويكفل فهم الكلمة من طرف كل أعضاء المجموعة اللسانية. وبشكل هذا الصوت *a* واقعة لسانية وموضوعاً لسانياً من نوع خاص، لأنه مُحدّد بالاعتقاد على معيار.

ويتسع ذلك لينطبق، شرعياً، على كل العناصر اللسانية الأخرى. حتى إننا سنجد في كل مكان من اللسان التطابق المقفّد نفسه أي تطابق الأشكال اللسانية (الحفظاطات النحوية مثلاً — جنباً إلى جنب مع التحقيق الفردي واللامتكرار للتطبيق الذي يقوم به الفرد لصيغة أو شكل ما من فعل الكلام، هذا الفعل الفردي بدوره. الواقعة الأولى جزء لا يتجزأ من النظام اللساني، والواقعة الثانية ترتبط بالعمليات الكلامية الفردية، التي تتحكم فيها (من وجهة نظر اللسان كنظام) عوامل فيزيولوجية وذاتية نفسية محتملة، لا يمكن عرضها وتحليلها بدقة.

وواضح أن النظام اللساني، بالمعنى المحدّد آنفاً، مستقل تمام الاستقلال عن كل أفعال الإبداع الفردية وعن كل النيات والمقاصد، ولا يمكن أن يتعلق الأمر، حسب وجهة النظر الثانية، بإبداع لساني معقّلن تقوم به الذات المتكلمة⁽¹⁶⁾. فاللسان يتعارض مع الفرد لأنه معيار حاسم لا يمكن تحطيمه، وما على الفرد سوى أن يتقبل اللسان كما هو. وفي حالة ما إذا لم يدمج الفرد هذه الصيغة اللسانية أو تلك باعتبارها معياراً حاسماً، فإنها تنعدم بالنسبة إليه لتصبح مجرد احتمال وإمكان في جهازه النفسي — الفزيائي الفردي. فالفرد يتسلم من المجموعة المتكلمة نظاماً لسانياً جاهزاً كاملاً مسبقاً، وأي تغيير يحدث داخل هذا النظام يتجاوز حدود وعيه الخاص. ولا يصير الفعل الفردي لنطق صوت ما فعلاً لسانياً إلا في نطاق ارتباطه بنظام لساني ثابت (في لحظة معينة من تاريخه) وحاسم بالنسبة للفرد.

ماهي القوانين التي تتحكم في النظام الداخلي للسان؟ إنها قوانين متأصلة ونوعية لا يمكن اختراعها أو تقليصها إلى أية قوانين ايدولوجية، كيفما كانت فنية أو غيرها. إن كل

أشكال اللسان وصيغه، إذا نظر إليها في لحظة محدّدة، (أي على المستوى التزامني) يتوقف بعضها على البعض الآخر بشكل حتمي وتكامل فيما بينها، وتكون من اللسان نظاماً مُبْتَنِياً خاضعاً إلى قوانين لسنية صرفة. وعلى العكس من القوانين الأيديولوجية — التي لها علاقة بالمعاملات المعرفية والإبداع الفني الخ... — لا يمكن أن تكون تابعة ومتعلقة بالوعي الفردي. وإن نظاماً كهذا يتحم على الفرد أن يتقبله في كليته ويستوعبه كما هو. ولا محل هنا لبعض التمييزات والفروقات الأيديولوجية ذات الطابع القيمي مثل : إنه قبيح أو أفضل، أو جميل أو كره الخ... إذ لا يوجد في الواقع سوى مقياس لسني واحد : صائب أو غير صائب. ويجب فضلاً عن ذلك — حسب مراسم التصحيح اللسني، الاقتصار فقط على فهم الالتزام بمعيار معين للنظام المعياري للسان. ولا يمكن بالتالي أن نتكلم عن « ذوق لسني » ولا عن حقيقة لسنية. فالفرد يعتبر هذه القوانين اللسنية اعتبارية أي أنه لا يمرر لها لكي تكون طبيعية أو أيديولوجية (قنية مثلاً). وهكذا لا توجد علاقة سهلة بين الوجه الصوتي للكلمة وبين معناها كما لا يوجد توافق ذو طبيعة قنية. وإذا كان اللسان — باعتباره مجموعة من الصيغ — مستقلاً عن كل دافع إبداعي وعن كل نشاط صادر عن الفرد فإنه سيكون بالتالي نتاج إبداع جماعي، وظاهرة اجتماعية، ولهذا السبب يكون معيارها لكل فرد، يثلّه في ذلك مثل أي مؤسسة اجتماعية.

١٠٠

ورغم ذلك فإن هذا النظام اللسني، الفريد والقار من الناحية التزامنية، يتحول ويتطور ضمن عملية التطور التاريخي لاجتماع لسني معين، ذلك لأن الهوية المقيدة للوحدة الصوتية، بالشكل الذي وضعناها عليه، متغيرة ومتباينة حسب مختلف عصور تطور لسان ما. ومجمل القول أن اللغة تاريخها. فما هي الفكرة التي يمكن تكوينها عن هذا التاريخ حسب وجهة نظر الاتجاه الثاني ؟

إن الواقعة الأكثر دلالة بالنسبة لهذا الاتجاه الفلسفي — هي الهوية التي تفرق بين تاريخ النظام اللسني المقصود وبين المقاربة اللاتاريخية التزامنية. إن البرهان الأساسي الذي يورده الاتجاه الثاني يجعل من هذه الهوية الجدلية هوة يستحيل عبورها.

ليس هناك ما يجمع بين المنطق الذي يحكم ويسود نظام الصيغ اللسنية في لحظة معينة من التاريخ وبين منطق (بل غياب منطق) التطور التاريخي لهذه الصيغ والأشكال. انهما منطقتان مختلفتان. أو على الأصح، إذا ما اعتبرنا أحدهما هو المنطق فالأول أن يعرف الآخر بأنه ليس منطقاً، أي أنه النفي غير المشروط للمنطق المُتَقَبَّل.

والواقع أن الأشكال والصيغ التي تكون النظام اللسني تتوقف على بعضها البعض في غير استقلال، وتكامل فيما بينها كعناصر الصيغة الرياضية الواحدة. فتغير عنصر واحد من عناصر النظام يخلق نظاماً جديداً، مثلما يخلق تغيير عنصر في الصيغة، صيغة جديدة. إن العلاقة والقواعد التي تحكم الأواصر الرابطة بين عناصر صيغة معينة لا يمكنها أن تشمل ما يربط النظام أو المعادلة المقصودة بنظام آخر أو صيغة أخرى يأتيان من بعدهما.

ويمكننا أن نوظف هنا مقارنة غير دقيقة ولكنها تعبر، رغم كل شيء، وبالقدر الكافي من السداه، عن العلاقة التي يقيمها الاتجاه الفلسفي — اللسني الثاني بتاريخ اللسان. ولتكن

المقارنة بين النظام اللسني وبين صيغة (نيوتن) لحل المخارج ذات الحدين. فهذه الصيغة تحكمها قواعد صارمة جداً، تُخضع لها كل العناصر وتثبتها. ولنفترض أن طالباً أخطأ لدى استعماله هذه الصيغة فخلط مثلاً بين الرموز وأسسها فسيستجيب عن ذلك معادلة جديدة لها قواعدها الداخلية (ومن البديهي ألا تصلح هذه المعادلة لحل المخارج ذات الحدين التي وضعها (نيوتن))، لكن ليس لذلك أهمية بالنسبة للمقارنة التي نقوم بها). لا توجد بين الصيغة الأولى والثانية أية علاقة رياضية بتاتاً تشبه تلك التي تحكم العلاقات الداخلية لكل صيغة رياضية.

في اللسان، تجري الأمور بالكيفية ذاتها تماماً. فالعلاقات النظامية التي تربط بين صيغتين لسنتين في النظام (في حالته التزامنية) مغايرة كل المغايرة للعلاقات التي تصل بعض هذه الصيغ بصورتها المتحولة في مرحلة تالية من التطور التاريخي للسان. ان الجرمانية السابقة للقرن 16 كانت تصرف : : ich was-wir waren ; أما الألمانية المعاصرة فتصرفها كالتالي : ich war-wir waren ; وهكذا تحولت ich was لتصبح ich war. وكل هذه الصيغ : wir waren-ich war و wir waren-ich was تربط فيما بينها بعلاقة لسنية نظامية، إنها ألفاظ يكمل بعضها البعض الآخر. ويتجلى هذا الأتباط وهذا التكامل على الخصوص في تعريف فعل واحد حسب العدد : المتكلم المفرد، وجمع المتكلمين. وتوجد بين wir waren ich war - من جهة. وبين ich was (في 15 و 16) و ich war (المعاصرة) من جهة أخرى، علاقة مختلفة لا تشبه في شيء العلاقة الأولى. لقد تكونت صيغة ich war عن طريق القياس على wir waren. وعوض ich was، فقد تُوصِّل تحت تأثير wir waren (ونائب فاعل الفعل المبني للمجهول هم أشخاص معزولون عن بعضهم البعض) إلى إبداع ich war⁽¹⁷⁾. هكذا اكتسبت الظاهرة صيغة جماهيرية والنتيجة أن خطأ فردياً تحول إلى معيار لسني.

وبهذه الكيفية توجد بين العلاقات :

- (1) wir waren - ich was (في الإطار التزامني للقرن 15) أو ich war wir waren (في الإطار التزامني للقرن 19).
- و (2) ich was-ich war

wir waren (باعتبار هذه العلاقة عاملاً مثيراً للترميم المقارني) فروقات عميقة جداً على مستوى المبادئ. فالعلاقة التزامنية الأولى تحكمها وتسيرها الأناصر اللسنية النظامية بين العناصر المتكاملة والمترابطة والمتوقف بعضها على البعض الآخر. وتقف هذه العلاقة بوصفها معياراً صارماً في تضاد مع الفرد. أما العلاقة الثانية (وهي التاريخية أو التساهلية) فهي خاضعة لقوانينها الخاصة، وبدقة أكثر، لقوانين الخطأ القياسي.

إن منطق تاريخ اللسان هو منطق الأغلاط الفردية أو الانحرافات والشذوذ. فالانتقال من ich was إلى ich war يحدث خارج مجال الوعي الفردي. إنه انتقال غير إرادي، يمر دون أن يثير الانتباه، وهذا هو شرط تحققه. ولا يمكن أن يوافق العصر الواحد سوى معيار لسني واحد، سواء ich was أو ich war. إن الشذوذ وحده يمثل إلى جانب المعيار. لكن لا محل لمعيار آخر مناقض (لهذا يستحيل أن تكون هناك «مأساة» لسنية). وإذا لم يُذكر الشذوذ عن القاعدة، بوصفه خرقاً لها، فلم يقع تصحيحه بالتالي، وإذا توفرت الأرضية

الملائمة لتعميم الخطأ (ستكون الأرضية الملائمة، في هذه الحالة، هي المقارنة والقياس) فإن هذا الاتجاه يصير هو المعيار اللسني الجديد.

هكذا يتضح عدم وجود أي علاقة ولا أي شيء مشترك بين منطق اللسان، كنظام للصيغ، وبين منطق تطوره التاريخي. فالدائرتان تحكمهما قوانين مختلفة تمام الاختلاف، وعوامل متنافرة أشد التنافر، كما أن الشيء الذي يجعل اللسان دالا ومتناسقا ومتناسكا ضمن الأطار التزامني نراه مستبعدا وغير ذي نفع في الأطار التابعي. إن حاضرا اللسان وتاريخه لا يفهمان بعضهما البعض بل عاجزان عن التفاهم.

إننا نلاحظ الاختلاف العميق جدا، في هذه النقطة بالضبط، بين الاتجاه الأول والاتجاه الثاني لفلسفة اللسان. إذ يكمن جوهر اللسان، بالنسبة للأول، في تاريخه. وليس منطق اللسان، قطعاً هو منطق تكرار الصيغ المتجسدة في قاعدة أو معيار، ولكنه يتجلى أساساً في التجديد المستمر وفي اصطباغ هذه الصيغ بالصيغة الفردية عبر أقوال فريدة من حيث الأسلوب، وغير قابلة للتكرار. فواقع اللسان يشكل أيضا صيرورته. هناك اتحاد كلي يصل بين لحظة خاصة من لحظات حياة اللسان وتاريخه. ففي كلا الجانبين تسود نفس الحوافز الأيديولوجية. وكما يقول (فوسلر) «إن الذوق اللسني يخلق وحدانية اللسان/في لحظة معينة. وبفسف الشكل يخلق ويضمن وحدانية صيرورته التاريخية» ويحدث الانتقال من صيغة لسنية الى أخرى، أساساً، في حدود الوعي الفردي، ذلك لأن كل صيغة نحوية، كما يرى (فوسلر) وكما سبق أن رأينا، كانت في الأصل صيغة أسلوبية حرة.

ويتضح الفرق بين الاتجاهين، تمام الوضوح من خلال مايلي : لم تكن الصيغ المقعدة والمسؤولة عن ثبوتية النظام اللسني [العمل أو مقياسه = [ergon] — في نظر الاتجاه الأول — سوى نفايات ننته تختلف عن التطور اللسني وعن الجوهر الحقيقي للسان. هذا الجوهر الذي يُحْييه فعل الإبداع الفردي والفريد. أما بالنسبة للاتجاه الثاني فإن هذا النظام بالضبط، أي نظام الضيغ المقعدة، هو الذي يصير جوهرًا للسان. ولا يشكل الانحراف والتنوع بطابعهما الفردي والمبدع في الصيغ اللسنية المقعدة أكثر من حثالات حياة اللسان (وبالضبط لثبوتيته الظاهرية) ولا أكثر من تناسقات لا طائل من ورائها وغير قابلة للدراك والضبط في نظام الصيغ اللسنية الثابت أساساً. ويمكن أن نحصر لب آراء الاتجاه الثاني في الاقتراحات التالية :

1 — اللسان نظام ثابت وغير متحرك لأشكال لسنية خاضعة لمعيار حاسم يتسلمه الوعي الفردي كما هو.

2 — إن قوانين اللسان في جوهرها، قوانين لسنية من نوع خاص تقيم روابط بين الدلائل اللسنية داخل النظام المغلق. وتكون هذه القوانين موضوعية بالنسبة لكل وعي ذاتي.

3 — لا علاقة للروابط اللسنية الخاصة بالقيم الأيديولوجية (فنية، معرفية أو أخرى). كما لا يوجد أي حافز إيديولوجي في أساس الوقائع اللسنية. ليس بين الكلمة ومعناها علاقة طبيعية ومفهومة يدركها الوعي، كما لا توجد أي علاقة فنية بينهما.

4 — ليست أفعال الكلام الفردية — حسب وجهة نظر اللسان — سوى انحرافات أو تنوعات عارضة أو مجرد تشويهاً لصيغ مقعدة. لكن أفعال الكلام الفردية هذه هي التي تفسر التحول التاريخي الذي يحدث في صيغ اللسان، ولأن هذا التحول على تلك الحالة فإن النظام يُعتبر غير معقول ولا معنى له. ولا توجد بين نظام اللسان وتاريخه علاقة ولا وحدة في الحواجز. إنهما غريان عن بعضهما.

سيلاحظ القارئ أن الاقتراحات الأربعة المخصصة للاتجاه الثاني من الفكر الفلسفي — اللسني مناقضة للاقتراحات الأربعة المخصصة للاتجاه الأول.

من الصعب جداً تتبع التقدم التاريخي للاتجاه الثاني. إذ أننا لا نعلم له، في فجر عصرنا هذا، على ممثل أو منظر يمكن أن يقارن من حيث وزنه وعظمته بهامبولدت. ولا بد من البحث عن جذور هذا الاتجاه في عقلانية القرنين 17 و 18. لأن هذه الجنور تغرس في التربة الديكارتية.⁽¹⁸⁾ وأول من عبر عن هذه الأفكار، بكيفية واضحة جداً، هو (ليبنتز) في نظريته عن النحو الشمولي.

إن فكرة لسان عرقي، واعتباطي خاصة يتميز بها التبار العقلائي كله، كما يتميز أيضاً بالتوازي الذي أقامه بين النظام الرمزي اللسني والنظام الرمزي الرياضي. وهو لا يعكس علاقة الدليل بالواقع، أو علاقته بالفرد الذي يولده ولكنه يعكس علاقة الدليل بالدليل داخل نظام مغلق — مدمج ومقبول رغم ذلك — يستقطب اهتمام فكر العقلانيين المنصب على الرياضيات. ويعبر آخر فإن الذي يهمهم هو المنطق الداخلي لنظام الأدلة فقط؛ ويعتبر هذا الأخير، كما في الجبر، مستقلاً تمام الاستقلال عن المدلولات الإيديولوجية المرتبطة به. يميل العقلانيون بدورهم إلى الاهتمام بوجهة نظر المتلقي، لكنهم يهملون كلياً وجهة نظر المتكلم باعتباره ذاتاً تعبر عن حياتها الداخلية؛ ذلك لأن الدليل الرياضي غير قابل، أكثر من غيره، لأن يُؤول على أنه تعبير عن النفسية الفردية. لقد كان العقلانيون يعتبرون الدليل الرياضي هو الدليل الأمثل، والتمازج الدلائلي الأرفع، بما في ذلك اللسان. وكل هذا نجد بعينه معبراً عنه بوضوح في فكرة (ليبنتز) عن النحو الشمولي⁽¹⁹⁾.

من الملائم أن نلاحظ في هذا الصدد، بأن أسبقية وجهة نظر المتلقي على وجهة نظر المتكلم ثابتة لدى الاتجاه الثاني. لهذا السبب، واعتباراً للأرضية المختارة من طرف هذا الاتجاه، لم يسبق لمشكلة التعبير أن عولجت، ولا حتى مشكل تطور الفكر والفردية الذاتية الذي بقي غفلاً، وبالشكل الذي يبدو عليه في الكلمة (إنه اهتمام رئيسي لدى الاتجاه الأول).

ولقد تبلورت فكرة اللغة كنظام أدلة اعتباطية وعرفية، وعقلانية في الجوهر، بشكل مبسط منذ القرن 18 لدى مفكري عصر الأنوار. ظهرت هذه الأفكار التي تتكون منها الموضوعانية المجردة، في فرنسا أولاً، وما زالت تجد فيها حتى الآن، الأرض المفضلة⁽²⁰⁾.

ودون أن نتوقف عند المراحل الوسيطة نمو هذه الأفكار، سنتنقل بسرعة إلى ذكر خصائص هذا الاتجاه الثاني في المرحلة الراهنة. وتبرز المدرسة المسماة بمدرسة (جنيف) — مع (فرديناند دو صوسير) — كتعبير أكثر تألقاً عن الموضوعانية المجردة في عصرنا. وبعد

ممثلو هذه المدرسة — وعلى الأخص (شارل بالي) — من بين أعظم اللسنيين المعاصرين. لقد أضفى (صوسير) على أفكار الاتجاه الثاني وضوحا ودقة رائعين. في حين أن صياغته للمفاهيم الأساسية التي تقوم عليها اللسنيات قد أصبحت كلاسية. ثم إنه بالإضافة الى ذلك دفع — وبجسارة — أفكاره وتأملاته بعيدا حتى النهاية، سابغا على كل السمات الجوهرية للموضوعانية المجردة صفاء وتماسكا نادريين. ولهذا لم تلق مدرسة (فوسلر) في روسيا حظوة كبيرة في حين صارت مدرسة (صوسير) شعبية وذات تأثير كبير. ويمكن القول بأن غالبية ممثلي فكرنا اللسني يوجدون تحت التأثير الحاسم لصوسير وتلامذته مثل (بالي) و (سيشهاي)⁽²¹⁾ يستوقف طويلا لتمعن النظر في المفاهيم الصوسيرية لما لأسسها النظرية من أهمية كبرى بالنسبة للاتجاه الثاني واللسنيات الروسية. لكننا سنقتصر هنا أيضا على المواقف الفلسفية اللسنية الأساسية⁽²²⁾.

يضع (صوسير) مبدأ ثلاثي الأطراف : اللغة ، اللسان (كنظام للصيغ) وفعل التحدث الفردي وهو الكلام (٥). ان اللسان والكلام هما العنصران المكونان للغة، باعتبارها جمعا (بدون استثناء) لكل التجليات — الفيزيائية والفيزيولوجية والنفسية — التي تساهم في النشاط اللغوي. ولا يمكن للغة أن تكون — في نظر (صوسير) — موضوعا لللسنيات. لأنها في حد ذاتها لا تتوفر على وحدة داخلية ولا على قوانين مستقلة وغير تابعة. إنها عبارة عن خليط وعدم انسجام. ومن الصعب الاهتداء الى طريق في تركيبها المتناقض. بل من المستحيل، اذا بقينا في مجال الكلام، القيام بوصف صحيح لوقائع اللسان. فاللغة لا يمكن أن تكون منطلقا لتحليل اللسني.

فما هو طريق التقدم المهاجي الصائب الذي يقترحه علينا (صوسير) من أجل توضيح الموضوع الخاص لللسنيات ؟ لتركه يتكلم :

« لا يوجد في رأينا إلا حل واحد لكل هذه الصعوبات (يتعلق الأمر بالتناقضات الداخلية «للغة» باعتبارها نقطة انطلاق لتحليله) : لا بد أولا من احتلال مكان في ميدان اللسان واعتباره معيارا لكل التجليات والمظاهر اللغوية الأخرى. والواقع ان اللسان وحده — من بين كثير من الثنائيات — يبدو قابلا لتعريف مستقل، ويعطي، بالتالي، للعقل سندا مرضيا. » (صوسير : دروس في اللسنيات العامة ص 24 — التشديد من طرف صوسير).

إذن ماهو الفرق المبدئي — في نظر صوسير — بين اللغة واللسان ؟

«إن اللغة، اذا اعتبرت في مجملها، متعددة الأشكال ومتنافرة، فهي تتصل بكثير من المجالات فيزيائية وفيزيولوجية ونفسية في الوقت ذاته، وتنتمي أيضا إلى الميدان الفردي والميدان الاجتماعي؛ وتستعصي عن التصنيف في أي نوع أو فئة من الوقائع الانسانية، لأننا لا نعرف كيف نستنبط وحدتها.

وعلى العكس من ذلك فإن اللسان كل في ذاته ومبدأ ترتيب وتنظيم، بمجرد أن نضعه في الصدارة ضمن الوقائع اللغوية، نُدخِل نسقا طبيعيا في مجموعة غير متقبلة لأي ترتيب آخر.» (ص 25 من نفس المصدر)

وهكذا يصبح من الضروري، بالنسبة لصوسير، الإنطلاق من اللسان كنظام للصيغ

تعود وحدته لتحويل نفسها على معيار، وتوضيح كل وقائع اللغة عن طريق الإحالة على صيغها الثابتة والمستقلة (المُقتَنَة من تلقاء ذاتها).

وبعد أن ميز اللسان عن اللغة، بمعنى كل التجليات والمظاهر اللغوية، دون استثناء، ميز أيضا اللسان عن أفعال التحدث الفردية أي أفعال الكلام :

«ونحن نفرق بين اللسان والكلام، نفرق في الوقت ذاته : أولا، ما هو مجتمعي عما هو فردي؛ ثانيا ما هو جوهري عما هو ثانوي أو عرضي إلى حد ما.

ليس اللسان عملا تابعا للذات المتكلمة، إنما هو نتاج يسجله الفرد بكيفية سلبية. فهو لا يفترض أبدا أي تصميم أو تأمل مسبق، ولا يتدخل فيه التفكير إلا من أجل نشاط الترتيب والتصنيف الذي سنعالجه فيما بعد.

أما الكلام فهو على العكس من ذلك، فعل فردي إرادي وعقلي، ويجب أن نميز فيه (أولا) بين التركيبات التي تستعمل الذات المتكلمة بواسطة النظام الاشاري للسان بقصد التعبير عن فكرتها الشخصية، (ثانيا) وبين الإوالية النفسية الفيزيائية التي تمكنها من تجسيد هذه التركيبات وإظهارها.» (نفس المرجع. ص 30.)

لا يمكن للكلام كما يفهمه (صوسير)، أن يكون موضوعا للسنيات⁽²³⁾. لا تتكون العناصر الخاضعة للسنيات، في الكلام إلا من طرف الصيغ اللسانية المقعدة والبارزة فيه، أما كل ما تبقى فهو «ثانوي وعرضي».

لنؤكد على هذه الأطروحة الصوسيرية الأساسية : اللسان يتعارض مع الكلام كما يتعارض المجتمعي مع الفردي. والكلام، على هذا الأساس، فردي بمجمله. وهنا تكمن النواة الوهمية (Proton Pseudos) لصوسير والاتجاه الموضوعاتي الجرد. إن الفعل الفردي لانجاز الكلام — التحدث، وقد بُقيَ نهائيا وبشكل حاسم إلى نحو السنيات، يُحصل فيها رغم ذلك على مكانة بوصفه عاملا ضروريا في تاريخ اللسان⁽²⁴⁾. ويرى صوسير أن هذا الأخير يتعارض بمدة — وفقا لفكر الاتجاه الثاني كله — مع اللسان كنظام تزامني. ويسود الكلام في تاريخ اللسان كملك نظرا لطابعه الفردي والعرضي. لذلك تحكمه قوانين مختلفة تمام الاختلاف عن القوانين التي تسود نظام اللسان وتسيره.

«وهكذا كانت «الظاهرة» التزامنية لا علاقة لها بالتابعة» (ص. 129).
سهم السنيات التزامنية بدراسة العلاقات المنطقية والنفسية التي تربط بين الألفاظ المتواجدة والمكونة للنظام، وكما يدركها نفس الوعي الجماعي .

« وعلى العكس من ذلك ستقوم السنيات التابعة بدراسة العلاقات الرابطة بين الألفاظ المتعاقبة، والتي لا يدركها وعي جماعي واحد، ويحل بعضها محل البعض الآخر دون أن تشكل نظاما فيما بينها.» (نفس المصدر ص. 140. التشديد قام به صوسير نفسه).

ونظرات (صوسير) هذه إلى التاريخ خصائص جد مميزة للفكر العقلاني الذي لا يزال طاغيا على الاتجاه الثاني في الفكر الفلسفي — اللساني حتى الآن، إن التاريخ، في رأي هذا الفكر، مجال غير عقلاني يشوه الصفاء المنطقي للنظام اللساني.

ولا يحتل (صوسير) ومدرسته وحدهما أعلى ذرى الموضوعانية المجردة المعاصرة. إذ نرى بجانبها مدرسة أخرى صاعدة هي مدرسة (دوركايم) الاجتماعية. وتعرف فيها على شخصية بارزة مثل العالم اللسني (مايه). لن نتوقف لوصف مفاهيمه، فاللسان بالنسبة له هو الآخر، لا يشكل ظاهرة اجتماعية باعتباره عملية متدرجة، ولكن لكونه نظاما قارا من المعايير اللسانية. ويرى أيضا أن اللسان بالصورة التي يبدو بها من الخارج الى الوعي الفردي، يشكل مع خاصيته الاكراهية السمات المجتمعية الأساسية للسان.

وستضرب صفحا عن المدارس والاتجاهات اللسانية الكثيرة التي لا تدخل في إطار الاتجاهين اللذين حددنا. ومع ذلك سنقول كلمة عن النحويين الجدد الذين يُكُونُون بحركتهم مظهرا من المظاهر اللسانية الكبرى في النصف الثاني من ق 19.

ونظرا لبعض مواقفهم، فهم يمتون بصلة القرابة إلى الاتجاه الثاني، إذ يركزون فيه على المكون الأصغر أي المكون الفيزيولوجي. كما يعتبرون أن الفرد المبدع للسان هو في جوهره كائن فيزيولوجي. من ناحية أخرى، وفي الميدان النفسي — الفيزيولوجي بالضغط، سعى النحويون — الجدد جاهدين الى وضع قوانين لسانية منسوخة عن العلوم الطبيعية، يعني قوانين ثابتة ومنفصلة تمام الانفصال عن أي اختيار حر يقوم به الأفراد المتكلمون. هذا هو أصل فكرة النحويين الجدد عن القوانين الصوتية (لوتجيسيتزه⁽²⁵⁾).

جوهريا، توجد في اللسانيات — كما في أي علم نوعي خاص — وسيلتان اثنتان للتخلص من مشقة العبء المترتب عن ضرورة بلورة فكر فلسفي جدي ناتج منطقيا، وقائم على مبادئ معينة، تتمثل الوسيلة الأولى في إقامة كل المبادئ دفعة واحدة على شكل مسلمات (الترعة الأكاديمية الانتقائية)؛ وتكمن الوسيلة الثانية في نحية كل المبادئ وإعلان الواقعة أساسا ومقياسا نهائيا لكل نشاط إدراكي أو معرفي (الوضعية الأكاديمية). والمفصول الفلسفي للوسيلتين من أجل التخلص من الفلسفة يبقى هو نفسه، لأنه يمكن — في الحالة الثانية — حشو كل المبادئ المسكنة والمتصورة في الخانة المسماة ب «الواقعة» أثناء البحث. إن اختيار هذه الوسيلة أو تلك يتوقف كل التوقف على مزاج الباحث : فالانتقائيون أكثر تساهلا، أما الوضعيون فهم أكثر تشددا.

ونلاحظ في اللسانيات نتائج كثيرة، بل حتى مدارس برمتها (المدارس بمعنى دراسة علمية تقنية) تعفى نفسها من مهمة وعبء تعيين اتجاه فلسفي لساني لها، إلا أنها بدهيا لا تدخل ضمن اطار عرضنا، وأخيرا هناك بعض اللسانيين والفلاسفة اللذين لم نشر إليهم مثل (أوطو دييتريش) (وأنطون مارتى). والذين سنعود الى الاستشهاد بهم فيما بعد خلال تحليلنا للتفاعل اللساني والمعنى.

لقد طرحنا في بداية هذا الفصل قضية توضيح وتحديد اللسان كموضوع من نوع خاص للبحث. وقد حاولنا استكشاف العلامات والصوى، الموضوعة من قبل، على طريق حل هذا المشكل من طرف اتجاهات الفكر الفلسفي — اللساني التي سيقنتنا. وفي نهاية المطاف نجد أنفسنا وجها لوجه أمام صنفين من الصوى الموضوعة في اتجاهين متناقضين جذريا، فمن جهة يتعلق الأمر بأطروحات الذاتية الفردانية ومن الجهة الأخرى بالأطروحات

الموضوعانية المجردة المناقضة لها. لكن ما الذي ينكشف أنه النواة الحقيقية للواقع اللسني ؟ هل هو فعل الكلام الفردي — التحدث — أو نظام اللسان ؟ ما هي كيفية وجود الواقع اللسني ؟ أهو التطور المبدع المتواصل أم ثبوتية المعايير المطابقة لذاتها ؟

ترجمة محمد البكري

هوامش :

1 — يتعلق هذا أساساً بعلم الأصوات التجزيبي الذي لا يدرس في الواقع أصوات اللسان، بل يعالج الأصوات التي ينتجها الأجهزة الصوتية، وتتلقفها الأذن، في استقلال تام عما تحتل من مكانة في نظام اللسان، وفي إنجاز الأقوال وإنشائها. ويجد هذا العلم صعوبات جمّة في سبيل تجميع متون هائلة من المعطيات، بهدف دراستها، دون أن يتسلح، مع ذلك، بمنهجية تساعده على الترتيب والتنظيم.

2 — لا توجد اليوم مؤلفات متخصصة في فلسفة اللغة. ولا نعر على مؤلفات أساسية إلا فيما يخص فلسفة اللغة واللسانيات القديمتين. مثلاً ستاينثال : *stainthal Geschichte des sprachwissenchaft* : *beiden Griechen und Römern*, 1980. أما فيما يخص التاريخ الأوربي فلا توجد سوى دراسات خاصة عن مفكرين ولسنيين (هامبولدت، بوندت Bundt، مارتني الخ...). - حدث عنها في فرصة أخرى. أما المسح الجاد، إلى حد ما، والوحيد لتاريخ فلسفة اللغة واللسانيات حتى الآن فيوجد في كتاب : أرنتس كاسيري E.Cassirer : *فلسفة الأشكال الرمزية*، المجلد الأول، اللغة، الفصل الأول «قضية اللغة في تاريخ الفلسفة». أما باللغة الروسية فإننا نجد مسحا سريعا ولكنه جدي للوضع الراهن لللسانيات وفلسفة اللغة، وذلك في مقال ر. شور (R.Schorr *Krisis Sovremennoj ceskij*, v, 1927, p.32-71) ويساهم م.ن. بيترسون من جهته بنظرة شاملة، رغم أنها غير تامة، للأعمال اللسانية المحتوية على مقارنة اجتماعية. ولن نورد هنا أعمالا عن تاريخ اللسانيات.

3 — وكما هي الحال، تقريبا، دائما مع هذا النوع من التسميات، فإن المصطلحين لا يعبران عن كل مضمون وتعميد الاتجاهين المحددين. وسنرى أن تسمية الاتجاه الأول غير مطابقة له بكيفية خاصة. ولكننا عاجزون عن إيجاد تسمية أفضل.

4 — هامان Hamann وهيردر Herder سبقاه في ذلك.

5 — لقد عرض هامبولدت أفكاره عن فلسفة اللغة في (*Über die Verschiede -heiten in Vorstudie zur Einleitung, zum kawiwerk, gesam, schafte deessprachbaues*) في كتاب «فيلهلم فون مانك (Akadémie-Ausgabe) Bd VI. وعن هامبولدت وتأثيره في اللسانيات الروسية : ب. انجلهارت (R. Heim). وقد ظهرت حديثا دراسة ذكية ودقيقة وذات أهمية كبرى. لصاحبها ج سيات (G.spätt) (:*Vnutrennaja forma slova*) (اللغة الداخلية) وهي دراسات وتنويعات لموضوع عاجله هامبولدت. ويحاول المؤلف أن يعثر على الجنود العميقة للفكر الهامبولدني

المدفونة تحت التأويلات التقليدية (هناك تقاليد عديدة لتأويل الفكر الهومبولدي). وتبين دراسة (سبات) الذاتية، مرة أخرى مدى تعقد فكر هامبولدت وإلى حد هو مليء بالتناقضات وقابل لتسويات مستقلة جدا.

6 — مؤلفه الفلسفي الرئيسي هو «Myli'jazvk» (الفكر واللغة) أكاديمية العلوم لقد نشر تلامذة (بوتينيا) Potebnia المكونون لمدرسة (Kharkhov)، في مواعيد غير منتظمة مجلة تسمى «Voprosy teorii | (Psychologija tvocestva) نظرية وعلم نفس الإبداع) وفيها نجد المؤلفات التي جمعت بعد وفاة (بوتينيا)، ومقالات تلامذته عنه. ويعرض المؤلف الرئيسي لبوتينيا أفكار هامبولدت.

7 — توجد في أساس مفهوم (ستينطاهل) النظرية النفسية ليربارت (Herbart) الذي يحاول جاهدا أن يبنى كل معطيات النفسية الانسانية انطلاقا من عناصر تحظى بتمثيل وترتبط فيما بينها بعلاقات تجميعية.

8 — تصنع الأرادوية حرية الاختيار كقاعدة للنفسية.

9 — إن ج. سبات هو الذي اقترح مصطلح «علم النفس السلالي» عوض المصطلح المنقول حرفيا عن الألمانية Vol ket Psychologie أي نفسية الشعوب. والواقع أن المصطلح الأخير غير كاف المراد، ويبدو لنا أن ما اقترحه (سبات) أفضل بكثير. انظر ج. سبات : (Vvedenje v etniceskuju priehologiju) (مدخل الى علم النفس السلالي منشورات أكاديمية الفنون والآداب، موسكو 1927. ويحتوي هذا الكتاب على نقد أساسي لفكر (بوندت)، إلا أن البناء الذي يعرضه به (سبات) غير مقبول هو الآخر.

10 — إن الكتاب الأول الذي عرض فيه (فوسلر) أسس فلسفته مخصص لنقد الاتجاه الوضعي في اللسانيات. وهذا الكتاب هو : (Positiuismus und idealismus in des sprachewissenschaft.) هايدلبرج 1904.

11 — «نحو وتاريخ اللسان» في Logos مجلد 1. 1910 . ص 170

12 — نفس المرجع ص 167.

13 — سنعود الى نقد هذه الفكرة فيما بعد.

14 — لقد جمعت الأعمال الرئيسية لفوسلر — والمنشورة بعد الكتاب الذي ذكرنا آنفا — في (فلسفة اللغة) (1920) Philosophie der sprache ويتعلق الأمر هنا بأخر منشورات فوسلر. فهي تعطي فكرة كاملة عن مفاهيمه الفلسفية واللسانيات العامة. ولندكر من بين الأعمال اللسانية ذات الطابع المميز لنهج فوسلر : (Frankreichs Kultur im Spiegel seiner Sprachentwicklung, 1913)

ويجد القاريء بيبليوغرافيا كاملة لفوسلر، حتى سنة 1922 في مجموعة (Ideaistische Neuphilologie التي خصصت له (1922).

ويمكن أن نقرأ باللغة الروسية مقالين عنه : المقال الذي ذكرنا سابقا ومقال (علاقات تاريخ الألسن وتاريخ الآداب) في Logos — 1912 1913، مجلد 1 — 2. ويعطي المقالان فكرة عن مرتكزات نظرية (فوسلر). اما نظرات فوسلر وتلاميذه فلم يسبق أن نوقشت في الأدب اللساني الروسي. وتوجد إشارة لذلك فقط في مقال (بيرمونسكي) عن النقد الأدبي المعاصر في ألمانيا. (الشاعرية، مجموعة 3، 1927 «أكاديميا») ولا يشير (ر. شور) في المسح الذي ذكرنا له آنفا، الى (فوسلر) الا في التقديم. وسيؤدي بنا المطاف فيما بعد إلى التحدث عن أعمال مُكتملي (فوسلر) والذين تظهر لديهم اهتمامات فلسفية ومنهجية.

15 — يوجد باللغة الروسية القسم الأول من علم الجمال لبينديتو كروشي «علم الجمال كعلم للتعبير وكنهصر في اللسانيات العامة» موسكو 1920. ونكتشف فيه النظرات العامة لكروشي حول اللسان واللسانيات .

• لم يكن مصطلح «فونولوجيا» مستعملا آنئذ، سيما وأن هذا الكتاب سابق لأعمال الحلقة الفونولوجية في براغ (ملاحظة للمترجمة الفرنسية).

16 — إلا أن أسس الاتجاه الثاني في الفكر الفلسفي — اللساني — على أرضية العقلانية بالشكل الذي عرضناها به — ملائمة تمام الملاءمة لفكرة لسان كوني عقلائي موضوع عن طريق الاصطلاح والاصطناع. سنرى ذلك فيما بعد.

17 — مازال الانجليزية يستعملون حتى الآن I was

18 — لا شك في وجود علاقة داخلية تربط في العمق بين الاتجاه الثاني والفكر الديكارتي وبين الرؤية العامة التي نظرت بها الكلاسيكية الجديدة الى العالم، مع تقديسها للشكل الحامد، العقلاني والثابت. لم ينشر (ديكارت) ذاته أي شيء عن فلسفة اللغة ولكن توجد في مراسلاته ملاحظات متميزة. راجع في هذا الصدد الفصل الذي أشرنا إليه من كتاب (كاسيرى).

19 — ويمكن التعود على هذه الآراء التي عبر عنها (ليبنز) بقراءة المؤلف الرئيسي لكاسيريه : Leibniz system in seinem wissenschaftlichen Grundlager, marburg 1902

20 — من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن الاتجاه الأول — على عكس الاتجاه الثاني — قد نما ومازال يواصل نموه في ألمانيا.

21 — يتموضع كتاب (ر. شور) اللغة والمجتمع (Jazyk i obscestvo) موسكو 1926 — في إطار فكر مدرسة (جنيف). وفيه يدافع (شور) دفاعا حارا عن آراء (صوسير) الأساسية. ونفس الشيء في المقال الذي سبق أن أشرنا إليه «أزمة اللسنيات المعاصرة» فإن (فيتو كرادوف) يتخذ فيه هو أيضا موقع المناقش لمدرسة (جنيف). مدرستان لسنيتان روسيتان تشكلان التعبير الصارخ عن الشكلانية في اللسنيات وتندجان كليا في اطار الاتجاه الثاني كما وصفناه إنيهما مدرسة (فوريناطوف) ومدرسة قازان (كرونتشيفسكي وبودوان دوكرورتاي).

22 — لقد نشر المؤلف الاسامي لصوسير بعد موته من طرف تلامذته وهو المعنون بدروس في اللسنيات العامة (1916). ونستشهد بطبعة 1922. ونتعجب كيف أن هذا الكتاب — رغم شدة تأثيره لم يترجم بعد الى الروسية، يمكن العثور على عرض آراء صوسير في مقال (شور) السابق وفي مقالة (بترسون) اللسنيات العامة 1923 المجلد السادس.

• كل استشهادات الفرنسية من كتاب صوسير منقولة بالفرنسية في النص الأصلي.

ولقد قام باحثين بحث كلمة مركبة هي yazuk-ree (اللغة) كمعارض لـ Jazyk kak sistema forme (اللسان) و Vyskazyvauie (التحدث أو فعل الكلام وإنجاز) (ملاحظة للمترجمة الفرنسية).

23 — حقا إن (صوسير) يقبل إمكانية لسنيات أخرى، هي لسنيات الكلام ولكنه لم يوضح في أي شيء يمكن أن تتمثل. وهاك ما قاله هذا الصدد : «يجب الاختيار بين طريقتين لا يمكن أن يسلكهما الانسان في الوقت ذاته ؛ ويجب انتباه كل واحدة منهما على حدة. وبالإمكان المحافظة على اسم لسنيات الكلام. ولكن لا يجب خلطه مع اللسنيات المعنية، أي تلك التي تجعل من اللسان موضوعها الوحيد.» (نفس المرجع ص. 39).

24 — يقول (صوسير) : «إن كل ما هو تابعي في اللسان لا يكون كذلك إلا عن طريق الكلام. ففي الكلام تكمن بفترة كل التحولات» (نفس المرجع ص. 138).

25 — يعرض (م.ن. بترسون) آراء (مايه) في ترابط مع أسس المنهج الاجتماعي عند دوركايم، وذلك في مقاله التي أشرنا إليها سابقاً «اللسان كظاهرة مجتمعية» أنظر ما يلي ذلك.

26 — أهم أعمال النحويين الجدد هي (أوسطوق)

Das physiologasche und psychologische Moment in der sprachlichen Formenbildung Berlin 1879; Brugman et Delbruck, Grundriss des vergleichenden Grammah'k

derindogermanischen sprachen (خمسة مجلدات 1886).

وبرنامج النحويين الجدد معروض في تمهيد كتاب (أوسطوف بروغمان).

osthoff et Brugmann Morphologische Untersuchugen. leipzig 1878.